بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ والتقرّب إليه بما يحبّ من صالح الأعمال والأقوال لا يكون مقبولًا عند الله إلّا إذا أقامه العابد على أركان ثلاثة، وهي الحب والخوف والرّجاء

فهذه الأركان الثلاثة هي أركان التعبّد القلبية التي لا قبول لأيِّ عبادة إلاّ بها، فالله جَلَّ وَعَلَا، يُعبد حبًّا فيه ورجاءً لثوابه وخوفًا من عقابه، وقد جمع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بين هذه الأركان الثلاثة في سورة الفاتحة التي هي أفضل سور القرآن، فقوله سُبْحَانَهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه المحبّة؛ لأنَّ الله منعم، والمنعم يُحب على قدر إنعامه؛ ولأنَّ الحمد هو المدح مع الحبّ للممدوح. وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيه الرجاء، فالمؤمن يرجو رحمة الله ويطمع في نيلها، وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه الخوف، ويوم الدّين هو يوم الجزاء والحساب، ثمّ قال تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: أعبدك يا ربّ بما مضى بهذه الثلاث: بمحبّتك ورجائك وخوفك، فهذه الثلاث هي أركان العبادة التي عليها قيام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لا تقوم إلّا على المحبّة التي دلّ عليها قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والرّجاء الذي دلّ عليه قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ والخوف الذي دلّ عليه قوله ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1]

(١) انظر: مؤلّفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (القسم الأول: العقيدة والآداب الإسلامية، ص: (٣٨٢ - ٣٨٣).

وقد جمع الله أيضًا بين هذه الأركان في قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فإنَّ ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبّه وفعل ما يحبّه، ثم قال: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ فذكر الحبّ والخوف والرّجاء[1]، وكذلك في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ولذا يجب أن يكون العبد في عبادته وذكره لله جامعًا بين هذه الأركان الثلاثة المحبّة والخوف والرّجاء، وهي كما وصف شيخ الاسلام ابن تيمية محركات القلوب[2].

ولا يجوز له أن يعبد الله بواحد منها دون باقيها، كأن يعبد الله بالحبّ وحده دون الخوف والرّجاء، أو يعبد الله بالرّجاء وحده، أو بالخوف وحده، ولذا قال بعض أهل العلم: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرّجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرّجاء فهو مؤمن موحّد»[3].

وأعظم هذه الأركان الثلاثة وأجلّها هو الحبّ، حبُّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الذي هو أصل دين الإسلام وقطب رحاه، والمحبّة منزلةٌ

(١) انظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم، ص: [٤٦٥].
(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٥).
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ٨١).

شريفةٌ فيها يتنافس المتنافسون، وإليه شمّر المتسابقون، وهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرّة العيون، وروح الإيمان والعمل، ومن لم يظفر بها في هذه الحياة فحياته كلُّها شقاءٌ وألمٌ.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أسبابًا عظيمة جالبة للمحبّة فقال: «إنَّ الأسباب الجالبة للمحبّة عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبّر، والتفهُّم لمعانيه وما أريد به.

الثاني: التقرُّب إلى الله تَعَالَى بالنّوافل بعد الفرائض.

الثالث: دوام ذكره على كلّ حال باللّسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبّة على قدر هذا.

الرّابع: إيثار محابّه على محابّك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلّبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس: مشاهدة برّه وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع: وهو أعجبها، انكسار القلب بين يديه.

الثّامن: الخلوة وقت النزول الإلهي، وتلاوة كتابه ثمّ ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبّين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، ولا تتكلّم إلّا إذا ترجّحت مصلحة الكلام، وعلمت أنَّ فيه مزيدًا لحالك ومنفعةً لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عَزَّوَجَلَّ».

ثم قال: «فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبّون إلى منازل المحبّة»[1].

ثم مع المحبّة يجب على العبد أن يكون خائفًا من الله راجيًا له راغبًا راهبًا، إن نظر إلى ذنوبه وعدل الله وشدّة عقابه خشي ربّه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشّامل رجا وطمع، إن وُفِّق لطاعة رجا من ربّه تمام النِّعمة بقبولها، وخاف من ردّها بتقصيره في حقِّها، وإن ابتلي بمعصية رجا من ربّه قبول توبته ومحوها وخشي بسبب ضعف التّوبة والالتفات للذّنب أن يعاقب عليها، وعند النّعم والمسارّ يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها وينتظر الفرج بحلّها، ويرجو أيضًا أن يثيبه عليها حين يقوم بوظيفة الصبر، ويخشى من اجتماع المصيبتين فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفّق للقيام بالصبر الواجب.

فالمؤمن الموحّد ملازم في كل أحواله للخوف والرّجاء، وهذا هو الواجب وهو النّافع، وبه تحصل السعادة، لكن يخشى على العبد من خُلُقين مذمومين:

إمّا أن يستولي عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله، أو

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٧ - ١٨).

يتجارى به الرّجاء حتى يأمن من مكر الله وعقوبته، ومتى بلغت الحال بالعبد إلى هذا فقد ضيّع واجب الخوف والرّجاء اللّذين هما من أكبر أصول الدّين ومن أعظم واجباته[1].

إنَّ الخوف المحمود الصادق هو ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه أن يقع صاحبه في اليأس من رَوْح الله والقنوط من رحمة الله، والرّجاء المحمود الصادق هو الرّجاء الذي يكون مع عملٍ بطاعة الله على نور من الله، أمّا إذا كان الرّجل متماديًا في التفريط والخطايا، مُنْهَمِكا في الذنوب والمعاصي، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمنّي والرّجاء الكاذب، ولذا قال بعض السّلف: «الخوف والرّجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتمّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النّقص وإذا ذهبا صار الطائر في حدّ الموت».

هذا واللهَ الكريمَ أسأل أن يوفِّقنا لتحقيق هذه المقامات العظيمة المحبّة والخوف والرّجاء، وأن يجعلنا ممن عبد الله حبًّا فيه، ورجاءً لثوابه، وخوفًا من عقابه، وأن يعيننا على تكميل ذلك وحسن القيام به، إنَّه سميع الدعاء، وهو أهل الرّجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «القول السديد» لابن سعدي، ص: (١١٩ - ١٢٠).

أركان التعبد القلبية

الذكر

وغيره من العبادات

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار المحجة

شارك في الدعوة إلى الله بنشر هذه المطوية لتكون لك حسنة جارية